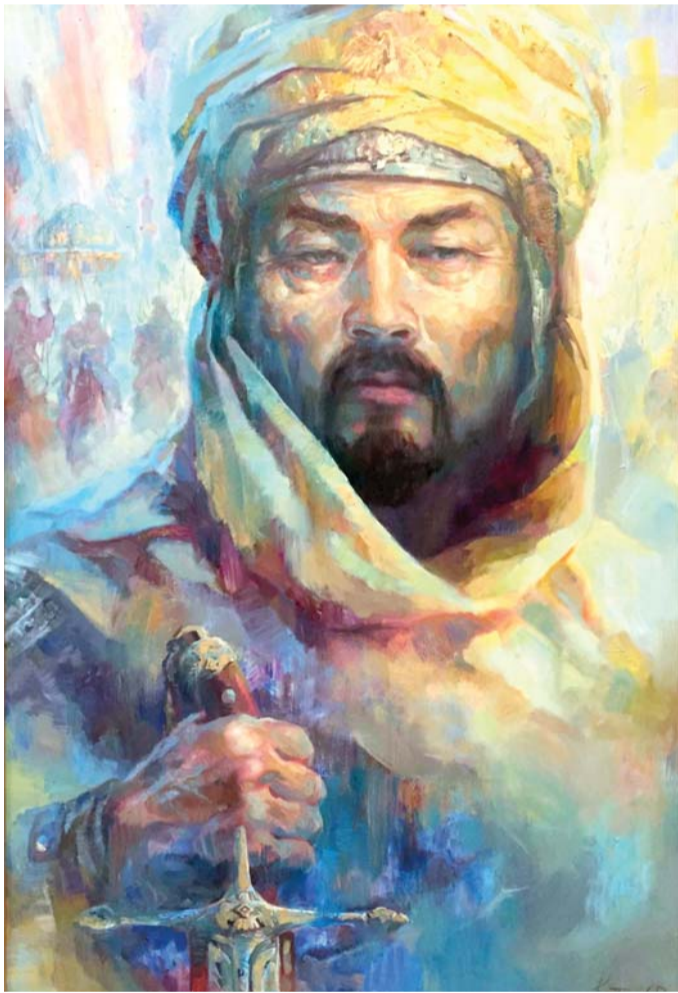


# الظاهر بيبرس.. ملحمة بنكهتين مصرية وشامية

## رواية ألفها الشعب وتدرجت جيلا بعد جيل لتكبر مثل كرة الثلج



السيرة الظاهرية تؤصل لدمشقيتها من خلال ما نسمعه على لسان حكاوي مقي النوفرة



ملوكي حكم البلاد والعقول وانتهى إلى أسطورة

في الحكم لم يدم إخلاصهم لحكم أولاد الظاهر بيبرس، إذ وفي بحر ثلاث سنوات قتل ولداه اللذان لم ينالا لقب ملك أو سلطان إلا بالاسم.



بيبرم التونسي

عسى أن يمتد بي الأجل  
حتى أقوم باستكمال هذه  
الملحمة وبهذا تنتهي حياتي  
مكافحا كما بدأت مكافحا

ليس في هذا أيضا، رغبة في جعله البطل الأوحى، والذي لا يتكرر أو يقع التناسل منه أو استنساخه.

بيبرس، فالأولى تركّز على البطولة المطلقة وما يعرف بـ"القبطي" لدى اهالي الشام، والثانية تجمع بين الفتوة وروح النكته والظرافة وكثرة التلصص عما يدور خلف القصور المغلقة. وتبدو فيها الأسوار الطبقية واضحة للعيان. أما عن ألف سيرة الظاهر بيبرس فهو سؤال يظل معلقا في الهواء مثل كل القصص الشعبية التي تدرج جيلا بعد جيل وتكبر مثل كرة الثلج، وإن كان الكاتب والمؤلف عبود عطية قد قال: ألفها الشعب!

### بين الظاهر وبيبرم

إنها - بالفعل - مهارة ينفرد بها الرواة الشعبيون في مصر فتعدو إرثا محليا خالصا تخصص له الدراسات كما في كتاب "البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس" للباحث إبراهيم عبد الحليم حنفي الذي يتناول فيه سيرة هذا الحاكم الملوكي من خلال البناء الأسطوري الذي سيطر على تكوينها، مثل النبوة والحلم، والأمنية الأسطورية، والعوالم الأسطورية، التي أثرت في بناء البطل حتى أصبح أسطوريا. وكذلك الأسباق الوظيفية التي أسهمت في بناء الأحداث والتكوين بعامة واللغة ومفرداتها وأشكالها والأبطال والمساعدين، وتعدد أشكالهم وقدراتهم الخارقة في مساندة البطل.

لا يختم الحديث عن سيرة الظاهر بيبرس دون ذكر عمل بقي مرميا سنين طويلة في أرشيف الإذاعة المصرية وهو السيرة الشعبية للظاهر بيبرس للعقري

بيبرم التونسي التي قدمتها الإذاعة عام 1960 في حلقات متسلسلة على جزأين، الجزء الأول ضم 188 حلقة.

ولن نكون مباغين إن قلنا إن هذا العمل يعتبر أفضل مرجع للباحثين والمتخصصين لحياة بيبرس، لما اتسم به من موضوعية معرفية كما يقول الكاتب والمؤرخ المصري سيد عنبه. لقد أثبت بيبرم أنه عارف في "علوم شتى، فنراه مستوعبا جيدا لأحداث التاريخ، وعارفا جغرافية المنطقة التي دارت فيها الأحداث، ومحللا لسيكولوجية الأشخاص والجماعات التي أتت ذكرها في السيرة، ومطوعا وناحدا للكلمات كي تعبر عن المواقف الدرامية، وأشياء كثيرة لا يمكن أن تتوفر في شخص واحد إلا إذا كان عقريا وبيبرم التونسي كان كذلك".

السيرة هي آخر أعمال بيبرم حيث كتب في مذكراته قبل وفاته بأربعة أيام "عسى أن يمتد بي الأجل حتى أقوم باستكمال هذه الملحمة، وبهذا تنتهي حياتي مكافحا كما بدأت مكافحا، إذ لا أنوي أن أقوم بعدها بأي عمل إلى أن ألقى ربا كريما".

وتتضمن السيرة مجموعة هائلة من الأشعار والأزجال والأغاني ضمن السياق الدرامي لأحداث السيرة. ففي الجزء الأول منها كتب بيبرم ما يقرب من 300 قطعة شعرية بالإضافة إلى 100

وحسن استغلال الفرص من ناحية أخرى. وهنا يختلف المؤرخون النقاد مع الشعبيين من الهواة وجمهور المعجبين من الحالمين، ولكن سواد العامة من المبالين إلى حب الخرافة والمبالغة يفصلون بيبرس فارسا لا يهزم ولا يخبط.

كانت صاحبة ومثيرة حياة هذا الملوك الذي وصل إلى أعلى ما يمكن أن يحلم به إنسان فما بالك بعبد مجهول النسب وبيع في أسواق النخاسين.

يصعب على المرء أن يحشو أثناء التحدث عنه الضحى بالسمين فيغوص في أسماء الشخصيات المتأثرة والمناصرة على حد السوء، ذلك أن بيبرس كان بالفعل حاكما ذا ميّزات، لكنه في النهاية شخصية مؤسّسة لا يمكن تناولها إلا على سبيل الوقوف عند السيرة الشعبية كإثر تجتمع حوله شعوب مناطق مصر والشام والعراق وتركيا، وحتى خراسان وبلاد القوقاز.

### روح الفكاهة

الظاهر بيبرس لم يكن إلا حلقة صغيرة من الحقبة الملوكية التي امتدت خذود دولتها لتشمل الشام والحجاز، ودام ملكها منذ سقوط الدولة الأيوبية سنة 1250، حتى بلغت الدولة العثمانية ذروة قوتها وضمّ السلطان سليم الأول الديار الشامية والمصرية إلى دولته بعد هزيمة المماليك في معركة الريدانية سنة 1517.

ما قاله الملك الصالح للفتن الملوكي بأنه بمثابة ولده مصدقا للرؤيا التي عاشها في المنام، مكنّت رواة السيرة من إلقاء الظاهر بيبرس، في آتون الأحداث أو لنقل على ضفافها، كمن يتبها لسباحة في بحر عميق الأسرار، ويبطن الكثير من الأحوال والمخاطر، وكذلك السرر والالاع. إنها بداية موفقة، وعلى الطريقة المصرية في التمهيد لعمل درامي شديد الإثارة وكثير التشويق، حيث انقرد رواة أرض الكنانة بتمصير السيرة حتى النخاع، ونزعوا عنها كل ما يتعلق بالأقاليم الأخرى كما فعلوا بالتغريب الهلالية. وكان ذلك على عكس الرواية الدمشقية التي تنسب للظاهر بيبرس إليها، وهو الذي خرج منها عبدا في سوق النخاسين ثم عاد إليها ملكا يتباهى الدمشقيون بإنجازاته كملكته الظاهرية التي ما زالت تقع إلى الآن على بعد خطوات من الجامع الأموي.

الطبعة الشعبية الدمشقية للسيرة الظاهرية تعج بدورها بالتشويق وتوصل لدمشقيتها من خلال ما نسمعه على لسان حكاوي مقي النوفرة النوفرة العريق كل مساء، وإلى حد اليوم، ونلاحظ تباينا واضحا في سرد السيرتين بحسب طبيعة شعب كل بلد ومزاجه الاجتماعي.

روح الفكاهة الشامية تختلف عن مثلتها المصرية في رواية سيرة الظاهر بيبرس، وفي أغلب الطبقات الشعبية، وحتى الظاهرية التي تم تحقيقها، تبدأ السيرة الأولى، ثم تنقل بعد ذكر بعض الوقائع الخيالية في بغداد إلى فقرة تصف مسير هلاون (هولاكو) إلى بغداد وصفا شيقا يوحي بكبريات الملحم في السينما العالمية "قسار الملعون هلاون، في ستين ألفا من الفرسان وكلهم يعبدون النيران دون الملك الديان، راكبين خيولا مثل الغزلان وساروا يقطعون البراري والوهاد. طالبين أرض بغداد".

آخر حبات الثلج كانت عام 2018 عندما استقبلت القاهرة بطلها الأسطوري في معرض للفنان الكازاخستاني دوران كاستيف الذي قدم لوحات مفعمة بأجواء المعارك التاريخية التي خاضها مواطنه الظاهر بيبرس، وكأنما بالقاهرة تعلن تضامنها مع عشاق البطل المحمي وتشاركهم البحث عن مسلك يبقى سيرة الملوكي الذي حكم عقول المصريين حية لا تموت.

حكيم مرزوقي  
كاتب تونسي

ثمة أكثر من سبب مقنع ووجه يجعلنا نرّج على بطل السيرة الشعبية الظاهر بيبرس (1223 - 1277)، في مثل هذه الأيام من شهر الصيام: أولها أن هذا السلطان الملوكي كان الشخصية الوحيدة الموثقة تاريخيا وممازالت سيرته تروى على السنة الرواة والحكاويين في سهرات المقاهي الرمضانية على الرغم مما اعترها من تضخم بلغ حد الأسطورة.

### سرديات غريبة

نفهم من مقدمة السيرة التي تفتن جميع المصريين أنها غريبة كل الغرابة عن أرضهم في خيوط نشأتها الأولى، لكنها قدرهم الذي نسج في بلاد بعيدة تترج تحت الحروب والويلات لتسكن في ديارهم ويعمّ الأمن والأمان.

وكان لكل رواية لسيرة شعبية أن تبدأ من الينابيع الأولى، إذ لا بد لكل بطل أن يمتلك قصة تخصه وحده ولا يتمتع بها غيره، لذلك حظي بيبرس ببساطة من أجمل السير التي تليق ببطلاته فاتحد الخيال بالواقع لينقذ كل منهما الآخر.

الذهنية الشعبية تبحث دائما عن سرديات غريبة وملفوفة بالغوض والمواربة لأبطالها، فلا يتوقع المرء في البداية أن يكون لشخصية مستعصفة ومهانة "شان عظيم" كما في الميثولوجيا الإغريقية، وحتى قصص الأنبياء والصالحين.

وأبداع الرواة المصريين دون غيرهم ممن تحدثوا وأضافوا للسيرة الظاهرية في بلاد الشام والعراق، فاحتقوا، كما ينبغي الاحتفاء، بأول حاكم إسلامي يتحول إلى بطل شعبي، ويلسان مصري فصيح يسوق الأمثال الشعبية والملح والطرائف، ضمن بيئة محلية فحوا الفوارق الطبقية وأخا بين لغة الحاكم ولغة المحكوم، الدليل على ذلك أن أغلب من حكم مصر بعد عهد الملكية، يحاول أن يتحدث بلهجة المصريين البسطاء أي بلغة الظاهر بيبرس والمحيطين به، وذلك سعيا وراء كسب ود الجماهير، لكن الأمر يبدو عسيرا أمام صعوبة المسألة المعيشية التي من شأنها أن تسرق روح الدعابة وخفة الروح.

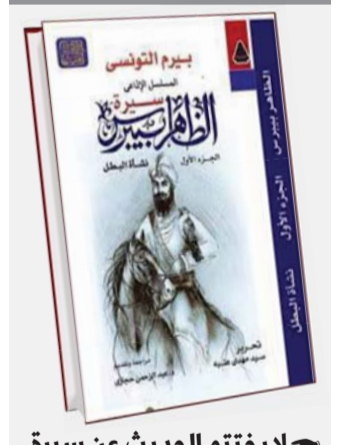
أول ظهور لبيبرس في الرواية المصرية على وجه الخصوص كان على هيئة غلام مريض ذليل محقر اسمه محمود العجمي "لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من شدة المرض والأسقام". ولكن أميراً يدعى "أبدمر" وتاجر مماليك السلطان الصالح أيوب واسمه في السيرة "الخواجة علي ابن الوراقة" عطف عليه وأدركا من ذكائه وفصاحته أنه أمير من أولاد الملوك من أرض خوارزم فأكرماه واعتنوا به إلى أن فتحت شهيته واشتاق لأكل "كشكأ بالدجاج"، ومع مرور الوقت شفي وصار محترما ومهابا.

وتتوالى الأحداث في السيرة إلى أن يسمع بيبرس عن مصر من وزير يدعى "نجم الدين البندقاري" الذي وصفها له قائلا "هنيئا لمن سكن فيها، وأظلمت سماؤها، وسقاه نيلها، لم يخلق مثلها في البلاد، ففيها المساجد وفيها الأهرام التي لم يخلق مثلها في البلاد، وفيها العلماء والأدباء والشعراء". فتعلق قلب بيبرس بها ونهب إليها مع نجم الدين ودخل القاهرة من باب النصر. وبعد مضي الأيام في القاهرة تبناه الملك الصالح وزوجته فاطمة (شجر الدر) بعد أن وضع الصالح القبضه بيته وبين بيبرس وقال له "يا ولدي هذا عهد الله شهده الله علينا أنك ولدي وأنا والدك" ثم أخذه إلى شجرة الدر ووضع القبضه بينهما.

يتسلق بيبرس في سلم السلطة لما يتمتع به من قدرات ومهارات تجمع بين الفروسية والذكاء من ناحية، والمكر

ك هذا، وإلى جانب انتصاراته على المغول والصليبيين، جعل من السلطان الملوكي بطلا قوميا وشعبيا تمجده السير الشعبية في مصر وبلاد الشام وغيرها فتغاضت عن أخطائه التي ذكرتها كتب التاريخ مثل أي زعيم يابئ الوجدان الجماعي أن ينتقده، فتزهره وصل إلى سدة الحكم في عصر يعقب بالدساتين والمؤامرات والاعتقالات.. ولم يكن بيبرس بمناي عنها.

### عصر الدساتين



لا يختم الحديث عن سيرة بيبرس دون ذكر عمل بقي مرميا سنين طويلة في أرشيف الإذاعة المصرية للعقري بيبرم التونسي

ومثل سيرة كل بطل ملحمي لا شيء يبدو اعتياديا في حياة الظاهر بيبرس، بدءا من اسمه الذي لم يولد معه بل وهبته إياه الأقدار في رمزية تنتزع الغازا ودالات (اسمه في البداية بيبرس البندقاري ثم محمود العجمي ثم الظاهر... الخ). وتتدرج الأحداث وتتشابك ليختلط فيها الواقعي بالخيالي، المنطقي بالسريالي، والروائي بالتوثيقي لتصنع عالما من الإدهاش فاق شرطيّة "الآن وهنا" في النسيج الروائي ليختلط حسود الواقع المعيش نحو حياة أخرى تسمح بها فلسفة التقمص التي تؤمن بانتقال الروح إلى جسد آخر بعد موت الجسد.. وهو ما يقيم الحجة والدليل على أن السيرة الظاهرية قد شارك في بنائها رواة آخرون قادمون من ثقافة تؤمن بمبدأ التقمص. ربما كان دخول هذا الخط هندوسي الأصل على أن عشاق الظاهر بيبرس لا يريدون له الموت فوجدوا له مسلكا نحو الخلود.